غنيمة. فاعترض عليه قوم يومئذ قائلين: "يحل لنا دماءهم ويحرّم علينا أموالهم؟ قال علي: القوم أمثالكم، من صفح عنّا فهو منّا، ونحن منه"[1].

وقد خصّ الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ أم المؤمنين عائشة ﷺ بمعاملة خاصة ورعاية متميزة إكراما لمكانتها من رسول الله ﷺ، فأمر بتجهيز راحلتها للعودة إلى المدينة وأرسل معها من يرافقها ويعني براحتها حتى تصل إلى منزلها في المدينة وهي معززة مكرمة[2].

2- معركة صفين والتحكيم:

بعد انتصار الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ في وقعة الجمل قام بتعيين عبد الله بن عباس واليا على البصرة[3]. ثم توجه بمن معه من الجند إلى الكوفة، فأتخذ له معسكرًا فيها. وبدأ من الكوفة في إدارة شؤون الدولة وتوجيه سياستها. وكان على رأس اهتماماته في هذه المرحلة محاولة إقناع معاوية بن أبي سفيان بالتخلي عن معارضته له والدخول في طاعته. فأرسل إليه جرير بن عبد الله البجلي، وكان عاملا للخليفة عثمان على همدان، "يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته"[4].

غير أن معاوية بن أبي سفيان "ماطله واستنظره، ودعا عمرو بن العاص، فاستشاره فيما كتب به إليه، فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام، ويلزم عليا دم عثمان، ويقاتله بهم. ففعل ذلك معاوية"[5]. وبذلك قطع الطريق على أية محاولة لحل الخلاف بينهما بالوسائل السلمية.

في ضوء ما تقدم فقد بادر الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ إلى الخروج من الكوفة في 5 من شوال سنة 36 هـ / 656 م لمقاتلة معاوية بن أبي سفيان على رأس جيش قدّر عدد أفراده بتسعين ألف مقاتل، وسار به باتجاه بلاد الشام حتى عسكر على موضع يقع على الجانب الغربي من أعالي نهر الفرات يدعى صفين[6].

وقد ردّ معاوية على مبادرة الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ بالخروج، بتجهيز جيش قدّر عدد أفراده بنحو خمسة وثمانين ألف مقاتل تولى قيادته بنفسه. وقد أشير إلى أن معاوية نجح في الوصول إلى صفين قبل أن يصل إليها عليّ بن أبي طالب،

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص 541.
(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 544.
(3) المصدر نفسه، ج 4، ص 543.
(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 561.
(5) المصدر نفسه، ج 4، ص 561 – 562.
(6) المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 415 – 416.

واستطاع بذلك أن يعسكر عند موضع ماء بحيث يتمكن من حرمان جيش الخليفة علي ﷺ من التزود بما يحتاجون إليه من ماء[1].

وقد حاول معاوية أن يستخدم هذه الميزة فيمنع جيش الخليفة علي من التزود بالماء، فقال له عمرو بن العاص "إن عليا لا يموت عطشًا هو وتسعون الفًا من أهل العراق وسيوفهم على عواتقهم"[2]، غير أن معاوية أصر مما أجبر جيش الخليفة علي ﷺ على أن يخوض معركة ضد جيش معاوية للوصول إلى الماء. وقد نجح في تحقيق هدفه وأزاح جيش معاوية عن موضعه[3].

ولم يحاول الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ أن يقابل السيئة بمثلها فيمنع جيش معاوية من ورود الماء، بل سمح لهم بأخذ حاجتهم منه، وبادر في أول يوم من ذي الحجة من سنة 36 هـ إلى دعوة معاوية لاتحاد الكلمة "والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين"[4]. ويبدو أن الدافع الذي دفعهم للهدنة في شهر محرم حرمة هذا الشهر ووجود أمل في التوصل إلى حل سلمي للمشكلة، فلما عجزوا عن الوصول إلى حل بعث الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ إلى أهل الشام "إني قد احتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه، وإني قد نبذت اليكم على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين. فلم يردوا عليه إلا: السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منّا"[5].

وهكذا تجددت الحرب بين الطرفين في أول يوم من صفر سنة 37 هـ / 657 م على صورة أشد مما بدأت. وكانت الحرب قد اتخذت في بدايتها شكل مناوشات ومبارزات متفرقة بين الفرسان. فكان الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ "يأمر الرجل ذا الشرف، فيخرج معه جماعة، ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة، فيقتتلان في خيلهما ورجالهما ثم ينصرفان، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام لما يتخوفون أن يكون في ذلك من الاستئصال والهلاك[6]. وقد استمرت وتيرة الحرب على هذه الشاكلة طوال شهر ذي الحجة من سنة 36 هـ، ثم توقفت طوال شهر محرم من سنة 37 هـ. فلما انقضى هذا الشهر وعجز الطرفان عن

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص 416.
(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 416.
(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 416 – 418.
(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 418.
(5) المصدر نفسه، ج 2، ص 418.
(6) الطبري: تأريخ، ج 4، ص 574.

الوصول إلى اتفاق استؤنف القتال في يوم الأربعاء بصورة عنيفة بحيث استخدم كل طرف أقصى ما لديه من قوة وطاقة من أجل إحراز النصر على الطرف الآخر. وقد استمر القتال على هذا النحو عشرة أيام. وقد أفاضت المصادر في تفاصيل الوقائع وأهوالها، حتى مالت كفت الميزان لصالح جيش العراق. عند ذلك شعر معاوية بضرورة اللجوء إلى السياسة لتغيير مسار القتال، فاستشار عمرو بن العاص فيما يفعل فاقترح عليه الدعوة إلى تحكيم القرآن، كتاب الله"[1].

وحين وافق معاوية على مقترح ابن العاص قال عمرو بن العاص مخاطباً جيش الشام "يا أيها الناس، من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه، فكثر في الجيش رفع المصاحف، وارتفعت الضجة، ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام ومن لثغور العراق بعد أهل العراق، ومن لجهاد الروم، ومن للترك، ومن للكفار"[2].

وقد أثر هذا النداء في نفوس جيش العراق، فقال كثير منهم "نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه. وأحب قوم الموادعة، وقيل لعلي: قد أعطاك معاوية الحق، ودعاك إلى كتاب الله، فاقبل منه، وكان أشدهم عليه في ذلك اليوم الأشعث بن قيس"[3].

لقد حاول الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ أن يقنع أتباعه إن ما أقدم عليه أهل الشام من رفع المصاحف إنما هي خدعة ومكيدة بعد أن مالت الحرب لغير صالحهم، إلاّ أن قادة جيشه أصروا على موقفهم، وتهددوه إن رفض دعوة أهل الشام "أن يصنعوا به ما صنع بعثمان"[4]، فوافق على طلبهم وهو يقول "بالأمس كنت أميراً، واليوم أصبحت مأمورا"[5].

وهكذا فقد قام الخليفة علياً ﷺ بإيفاد الأشعث بن قيس إلى معاوية للتعرف على تفاصيل مقترحه بشأن وقف القتال. فقال له معاوية: "نرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله، وإلى ما أمر به في كتابه: تبعثون منكم رجلاً ترضونه وتختارونه، ونبعث برجل، ونأخذ عليهما العهود والميثاق أن يعملا بما في كتاب الله ولا يخرجا عنه، وننقاد جميعًا إلى ما اتفقنا عليه من حكم الله. فصوب الأشعث قوله، وانصرف إلى علي فأخبره ذلك. فقال

(1) المصدر نفسه، ج 5، ص 10 – 48، المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 418 – 432.
(2) المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 432.
(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 432.
(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 433.
(5) المصدر نفسه، ج 2، ص 433.